بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية به ترقى

بيني وبين ابن عاشور وموقع آية {وقطعناهم}

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي

بيني وبين ابن عاشور ﵀ في موقع قولِ ربِّنا تعالى مَجْدُهُ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾

أول سؤال تدبريٍّ يغشانا: ما المناسبة والاتصال بين هذه الآيات وما قبلها؟ وكيف كشفت لنا الواو في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] عن هذا الاتصال؟

الواو في كلمة {وَقَطَّعْنَٰهُمُ} عطفت ما بعدها على ما قبلها، مِنْ عطف القصة على القصة، ويظهر لي هنا أنك يمكن أن تشعر بالبداية الحقيقية لهذه المرحلة في العهد الإسرائيلي قد ظهرت في قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فهذا المحور هو بداية الكلام عن التمكين الأولي لبني إسرائيل بعد غرق فرعون، حيث استخلفهم الله ﷻ بعد هلاك عدوهم، والواو فيه مِنْ عطف القصة على القصة، فهي تعطف تلك المرحلة على بداية الكلام عن العهد الإسرائيلي في قول ربِّنا ﷻ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: ١٠٣]، فذكر في المحاور الأولى من العهد الإسرائيلي عهود الاستضعاف والبعث: بعث موسى ﵇، وفي هذا المحور كان التركيز على تمكين بني إسرائيل، واستخلافهم في الأرض، فذكر عهد التمكين والنقض الإسرائيلي، واختصت سورة الأعراف ببيان الأنقاض الكبرى التي نقض بها بنو إسرائيل عهد الله ﷻ، وانقسم إلى أقسام، فالقسم الأول ذكر الله ﷻ فيه النقض الأكبر الأول، وهو المطالبة الإسرائيلية بتأسيس الشرك والجهل والباطل في الأرض، وذلك في الآيات [الأعراف: ١٣٨-١٤١] حيث قالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ثم انتقل الحديث إلى النقض الأكبر الثاني، وهو تأسيس بني إسرائيل لدار الفاسقين.. إنهم الذين خرجوا عن التعظيم الإلهي لموسى ﵇ وأَخْذِ كتابه بقوة [الأعراف: ١٤٢-١٤٧]، فالنقض الأول ابتدأ بقوله: ﴿جَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ثم عطف الله ﷻ على النقضِ الأول النقضَ الثاني الذي بدأ بقوله: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، والآية المركزية في هذا القِسم قول الله ﷻ لموسى ﵇: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥-١٤٦].

ولملء الوعي الإسلامي والإنساني بجرائم النقض الإسرائيلية الخطيرة انتقل الحديث إلى النقض الأكبر الثالث، وهو التأسيس الفعلي الأولي لدار الفسق الإسرائيلية، حيث افتتحوها باتخاذ العجل ليكون إلهًا مقدَّسًا يُجاهر من خلاله بالشرك بالله، واستضعاف المصلحين، وامتد ذلك في الآيات [الأعراف: ١٤٨-١٥٣]، والآية المركزية فيه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فيمكنك أن تقول: إن الله -جلَّ مجده-

عطف النقض الثالث على النقض الأول؛ لأنه يبين الأنقاض الكبرى في الحياة الإسرائيلية، ويمكنك أن تجعل الواو عاطفة للنقض الثالث على بداية القِسم الثاني، وهو قوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾، والذكر قائم على الترتيب مع كونه بحرف العطف الجامع، إلا أن الترتيب الزمني يُفهم من السياق وواقع الأحدث القائمة.

وإذا كان بنو إسرائيل قد اجترأوا على هذا النقض المثير والشرك الصريح بالله ﷻ، فلا عجب أن نراهم يجحدون نبوة الرسول الخاتم، ولذا انتقل الحديث إلى النقض الأكبر الرابع، وهو نقض مستقبليٌّ: نقض الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ [الأعراف: ١٥٤-١٥٨]، وابتدأ بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ [الأعراف:١٥٤]، فعطف كامل النقض الرابع على النقض الأول، حيث تستمر القصة بصورة متصلة، وترتيب مدهش، ويمكن أن تجعل كامل النقض الرابع معطوفًا على النقض الثالث.

وفي القسم الرابع: يخبرنا الله ﷻ عن نقضهم الإيمان بالرسول النبي الأمي ﷺ، ولكن كيف يمكنهم أن ينقضوا عهد الإيمان بالرسول الخاتم ﷺ وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل؟

وهنا ينقلنا إلى النقض الأكبر الخامس، وهو نقض الأخذ بأحسن الكتاب الذي أمر الله ﷻ به موسى عليه السلام، حيث قال الله ﷻ له عند الكلام عن النقض الثاني: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، فنقضوا الأخذ بأحسنها مرةً بعد مرة، ابتداء بطلب أن تكون لهم آلهة، والثانية بتهيئة دار الفاسقين، والثالثة باتخاذ العِجل، والرابعة بعدم الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ، وهنا يبين الله ﷻ أنهم يحرصون على بناء دار الفسق في الأرض بتحريف التبديل على الرغم من كلِّ النعم التي يغدقها الله ﷻ عليهم.

وجاء هذا القِسم مبتدئًا بقوله: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فعطف هذا القِسم على النقض الأول لتكون تكملة منطقية لسلسلة أنقاض بني إسرائيل الكبرى لعهد الله ﷻ، فالواو إذًا عطفت هذا القِسم على النقض الأول، ويمكن أن تقول: إنها عطفت هذا القِسم على النقض الأكبر الرابع أيضًا، ولا تناقض.

لكن ابن عاشور ﵀ رأى أن الواو عطفت تقطيع بني إسرائيل أسباطًا أممًا على الآية التي قبلها مباشرة أي على قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وعلَّل رأيه هذا بعِلَّة غريبة، فقال: «عُطِفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ...﴾ [الأعراف: ١٥٩] إِلَخْ، فَإِنَّ ذَلِكَ التَّقْطِيعَ وَقَعَ فِي الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ»(١).

فما ترى في قول أستاذ المفسرين وإمامهم في القرن الرابع عشر الهجري؟

ابن عاشور ﵀ إمام من أئمة الهدى تصعب مخالفته أو التعقيب عليه، لكن الجواب هنا بيِّنٌ واضح لا تَعْسُر معرفته، فما اختاره ﵀ غير ظاهر البتة، بل تقطيع بني إسرائيل وقع لجميعهم لا للأمة الذين يهدون بالحقِّ منهم فحسب، والأمر واضح جدًّا، وعندما ادَّعى أحدهم صِحة ما ذهب إليه ابن عاشور ﵀ لم أكن أظنني أحتاج أن أحشد أدلة تظهر الذهول في هذا القول لشِدَّة وضوحه، لكنني –يا للغرابة– أجدني مضطرًا لتبيين المبيَّن، وتوضيح الموضَّح، وتعال نذكر عددًا من الأسباب لعدم الرضى باختيار ابن عاشور ﵀:

السبب الأول: أن تقطيع بني إسرائيل كان مسألة تنظيمية تتعلَّق بجميع الشعب لا ببعضه، وهذا ظاهر في القرآن والتوراة المعاصرة، ولم يكن القوم الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدلون في قوم موسى ﵇ إلا قِلَّة مستضعفين زمن موسى ﵇ حتى وجدنا هذا النبي العظيم لا يملك إلا نفسه وأخاه في أكثر من مقام كما في قول ربنا –جل مجده– وهو يحدثنا عن عدم قدرة موسى ﵇ على استنفار قومه لما أمرهم ربهم ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، ولم ينهض لمؤازرة موسى وأخيه ﵈ إلا رجلان من الذين يخافون، وما آمن به قبل ذلك إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم.

السبب الثاني: لو كان وقع هذا التنظيم فقط في الأمة الذين يهدون بالحق لما قال الله ﷻ مباشرة: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وما بعدها من الآيات التي تكشف أن الكلام هنا عن بني إسرائيل عامَّة، لا عن الذين يهدون بالحقِّ خاصَّة مثل قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

السبب الثالث: السبعون الذين اختارهم موسى ﵇ أخذتهم الرجفة، وقد ذكر كثير من المفسرين أن ذلك كان لأنهم طلبوا أن يروا الله ﷻ جهرة، فهؤلاء المختارون، فكيف بقية بني إسرائيل!

---

(١) «التحرير والتنوير» (٩/ ١٤٢).

وهنا تظهر قوة المنهج الذي مَنَّ الله ﷻ به عليَّ في هذه الموسوعة من التقسيم الدقيق لمعالم السورة حسب ترتيب آياتها مراعيًا اتصالها، مع مراعاة الوصول إلى الإحكام قدر الإمكان في هذا التقسيم.

وقد وجدت بعض المفسرين نصَّ على الاختيار الذي ذهبت إليه، فنقل الماتريدي ﷺ من الأقوال في معنى الآية: «قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي: جاوزنا بهم البحر، وجعلنا لهم اثنتي عشرة أسباطًا»(١).

وقال الطيبي ﷺ: «قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ معطوف على ما سبق من قصص بني إسرائيل عطف نوع قصةٍ على مثله»(٢).

بل وجدت الطيبي ﷺ يشعر بهذا التقسيم ذاته الذي مِلْتُ له قبل مراجعة كتابه، ويقرِّر ذلك بصورة تثير الإعجاب وتجعلك تدرك أنه ﷺ يشعر بقوة الترابط والتقسيم الذي في هذا المحور، فاسمع له يقول: «وهاهنا تم الكلام في جواب موسى عليه السلام عن دعائه وما يتصل به، ثم عاد إلى قصة القوم، فيكون قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] عطفًا على قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقوله: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٤٨]»(٣).

---

(١) «تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة» (٥/ ٦٥).

(٢) «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)» (٦/ ٦١٦).

(٣) «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)» (٦/ ٦١٨).